

الغاية المقصودة

لما كانت المصاعب نصيب كل عمل توخى من ورائه صاحبه الدقة والإتقان، فإن البحث بدوره واجه جملة من المصاعب التي تراوحت بين وجهين: أما الوجه الأول فقد كان في الأساس ممثلا في تلك القضايا المتداخلة مع الجانب العلمي للبحث؛ حيث شهد هذا الإنجاز لحظة رهيبية، فقد فيها الباحث قبل البحث مرجعه الذي كان الموجه والمرشد والناصح، والعون على كل عقبة، ودفعة واحدة حل الفراغ، وانسحب ذلك السند الكبير، الذي كان قادرا على العطاء المستمر دون كلل، وقادرا على الصبر الطويل ما دام الأمر لأجل خدمة العلم دون ملل، بل أن البحث عرف لحظة انقطاع بفعل هذه الفجعية، ولكن بإيماننا احتسبنا الأستاذ المشرف عند الله شهيدا من شهداء العلم، والله ما أعطى والله ما أخذ.

إن الباحث أصبح بعد ذلك يدرك أن مهمته باتت مقترنة بواجب الاجتهاد أكثر لاستكمال فصول البحث على الوجه الذي كان يطمحه المشرف الفقيده والذي سنعتبره حاضرا بقوة رسالته العلمية رغم أننا نسلم بقدر الله. وهكذا فقد زادت العزيمة خصوصا أن إدارة قسم اللغة العربية وآدابها لجامعة - بسكرة - تدخلت في الوقت المناسب وقدمت جميع الحلول اللازمة وقد عاد البحث إلى مجراه مجددا بفضل هذا التدخل الحكيم لاسيما أن الأستاذ المشرف الذي حل بالنيابة احتضن فكرة البحث وأعطاهما كل الرعاية.

أما الصعوبات الأخرى فقد تعلقت أساسا بجمع مادة البحث رغم أن الباحث باستمرار وإلى آخر لحظة لم يستسلم عن البحث وجمع مختلف المؤلفات التي كانت تخدم البحث ولكن تعذر عليه مع ذلك الحصول على أحد المصادر المتعلقة بالمنهج، رغم أنه كان يمتلك المعلومات الكافية عن ذلك المصدر، والأمر يخص كتاب: "الماركسية وفلسفة اللغة"، لمخائيل باختين، ترجمة: يمى العيد، ومحمد البكري. فكان البديل هو الاستعانة بكتب عديدة تطرقت إلى مضمون هذا الأصل.

من تلك الصعوبات أيضا، تعذر التكيف بسهولة - خصوصا في البداية - مع منهج الحوارية، وقد بدأت الألفة تحصل بالتدريج إذ ساعد الباحث على ذلك تلك الخلفية المتواضعة التي كان قد اكتسبها من خلال القراءات المتعددة لأعمال "دوستوفسكي"، وبعض المقتطفات الأخرى من الأدب

الروسي محل تطبيقات الحوارية، ومن ثمة فقد تمكن الباحث من وضع اليد على المنهج بعد جهد غير قليل.

كذلك من عقبات البحث، سعي الباحث إلى تكوين صورة متواضعة عن حاضر الأدب الجزائري، وشيء من ماضيه، ومع ذلك فقد تمكن في النهاية من تحقيق نسبة معتبرة من هذا الهدف؛ حيث يسر له ذلك إيجاد مكان وسط هذه النصوص الكثيرة والمختلفة لثلاثية "أحلام مستغانمي" لتكون هذه الصعوبات هي مجمل ما صادف البحث من الناحية العلمية.

أما الوجه الآخر فيخص بعض العراقيل الذاتية التي ندرك تماما أن ثمرة البحث ونتائجه ستمحوها دون أي شك يراود الباحث.

بناء عليه، سنحاول التطرق إلى نتائج البحث التي تم التوصل إليها بعد عمل دعوب حاولنا من خلاله أن نضيف شيئا للبحث الأكاديمي، ومن هنا فقد جاءت نتائج الدراسة على هذا النحو:

1- لقد كانت نصوص "الثلاثية" قادرة على استيعاب مختلف التقنيات الروائية، بشكلها الحاضر، الذي لا يقتصر على السرد المباشر فقط، ومنه استطاعت أن تشكل نقلة فنية جيدة إذا تمت مقارنتها بالنصوص المحلية للأدب الجزائري، وذلك من خلال السمو بمفهوم الزمان والمكان من الشكل النمطي المعتاد إلى بعد وظيفي يقارب مفهوم "مينخائيل باختين" (المرونوتوب).

2- إن الثلاثية خلعت ثوب الردة، الذي جعل من بعض نصوص الأدب الجزائري مجرد وسائل لغايات إيديولوجية ضيقة لم تكن لترقى إلى نص فكري، ولم تكن بصورة موضوعية لتمثل بهذه الكيفية وجهها راقيا من أوجه الفن الأدبي المطلوب.

3- إن الثلاثية كسرت تلك الأحادية الفكرية وتبنت تعدد الأفكار تحت سقف التناول الفني الجيد.

4- إن خيار التعدد الفكري سيجعل الثلاثية تقدم صورة من تعايش هذه الأفكار وتفاعلها، وتطورها، بدل تلك الصراعات التي كانت تمثل نوعا من الوصاية على القارئ، بمجرد أنها تعمد إلى إضعاف الفكرة المخالفة وتقوية الفكرة الواقعة ضمن إيديولوجية المؤلف.

5- رغم انصراف الثلاثية إلى استخدام التقنيات الفنية الجديدة للرواية كما يتصورها المنهج الحوارى فقد احتفظت بالسياق التاريخى والاجتماعى والثقافى ولم تتصل من جميع هذه السياقات، فأدى ذلك إلى إثراء المضامين وأعطى للثلاثية مبرر الانتماء بقوة إلى أدب جزائرى معاصر موجه إلى قارئ معاصر.

6- عرض الشخصوص انتقل فى الثلاثية من تلك الأوصاف السطحية البسيطة، إلى تكريس دور الوعى الذاتى والوعى بالعالم لتلك النماذج، حتى لكأن كل شخصية على حدى هى فعل فنى مجسد، لا يمكن أن يعطى لطرف آخر بل يصلح أن يدرج ضمن تلك الأسماء الفنية العالمية.

7- إن الرواية وفق منظور الحوارية، هى كسر لرتابة الأشكال الروائية المونولوجية، التى يهيمن عليها الصوت الواحد والأيدولوجية الواحدة، حتى تغدو شكلا تجاوزه الزمن، وبعبارة " ميلان كونديرا " هى " موت الرواية "، وبظهور هذا النموذج الجديد الذى يبنى توجهه على التعدد، ستنبعث الرواية بنفس جديد يتيح لها الاستمرار والقوة، وهو ما تأتى من نصوص الثلاثية.

8- من خلال تعدد الأصوات تثبت الثلاثية قدرة استيعاب أشكال عديدة من الوعى، حققت لها الانفتاح على الآخر وحضارة الآخر، واحترام آرائها وتوجهاتها، وإنما يكفى " الأنا " أن يثبت ولا يذوب فى قناعات هذا الآخر الذى تم تقديمه ممثلا فى شخص " كاترين " فى رواية " ذاكرة الجسد " و " فرونسواز " فى رواية " عابر سرير "، وكذلك مدينة باريس.

9- لقد انتصرت الثلاثية للوعى الذاتى، وبذلك فقد انتصرت للفرد الذى تم استضعافه أمام قوة التوجهات الجماعية.

10- قدرة الثلاثية على مضاهاة تلك النماذج الكبرى من نفائس الأدب العالمى والتفوق، وهذا ما سيفتح الباب أمام الأدب الجزائرى لاقتحام العالمية والإسهام فى إثراء التراث الفنى الإنسانى.

11- إن الحوارية كما ثبت من خلال التطبيق على الثلاثية قادرة على فك طلاسمة النصوص والوقوف على تلك الزوايا المظلمة، والسمو بالرواية إلى مستويات فنية رفيعة.

12- إن الحوارية تعالج النص من الداخل وتحيل على تلك الاستثمارات الخاصة لبعض اللغات الاجتماعية. وكذلك تدرس الحوارية النص من الخارج باعتباره المرجعية الأدبية لهذا النص من خلال

نصوص أخرى تم التفاعل معها، ونصوص الثلاثية جسدت الاستثمار للغات الاجتماعية والتنوع على مستوى الأساليب، بل وحققت الانفعال مع نماذج نصية أخرى، فتحققت للثلاثية بعدا تأصيليا وآخر أدبيا فنيا.

13- الفن غاية الثلاثية القصوى، لتأتي الأخيصة، والعواطف، والأفكار، فتصبح مجرد وسائل لا يطغى أحدها عن الآخر.

إن الباحث من خلال هذه النتائج المحققة، يمكنه القول بأن " ثلاثية أحلام مستغانمي " أثبتت بجدارة قدرة العقل الإبداعي الجزائري على إعطاء دفع كبير للنصوص الروائية المحلية، من خلال نقلة فنية بارعة على جميع الأصعدة. والأمر لم يقتصر على هذا الجانب فحسب؛ حيث استطاع ذوق المبدعة عن طريق نصوص الثلاثية، إظهار الشاعرية الكبرى في التعامل مع اللغة وتحقيق لحظة الانبهار لجميع قراء اللغة العربية، وذلك ما تؤكده الطبعات المتكررة لمختلف أقسام الثلاثية. أما استجابة الثلاثية لصرامة منهج الحوارية الذي استمده " ميخائيل باختين " من تلك الكتابات الفذة لكبار الأدباء العالميين، بشهادة النقاد، ستكون هذه الاستجابة لنصوص الثلاثية أكبر دليل على التحكم الفائق في التقنيات الفنية للرواية، وهو الوجه الأكثر دعوة إلى المسرة والابتهاج دون حدود.

أخيرا لا يدعي الباحث أنه قد تمكن من فعل كل شيء، أو قول كل شيء، لأن نصوص الثلاثية - يعود ويعترف - ظلت مدهشة إلى نهاية المطاف، وهذا ما سيجعل الباحث يقر بأنه بحث ولا يعتبر أن هذا الشكل من الدراسة قد حقق كل شيء، أو أن الفكرة تظل حكرا عليه، وإنما ستغمره المسرة كل المسرة، إذا علم أن باحثا آخر غيره رفع التحدي وخاض البحث مجددا وحقق نتائج أفضل.